القرآن الكريم وأثره فى اللغة

(١) القرآن

ذلك الكتاب العربى السماوى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق (حم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) تحدى العرب قاطبة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة فانبهروا وكبتوا وهم أهل الفصاحة واللسن الحريصون على إطفاء هذا النور ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، أجل لقد دله عقولهم وحير أبيناءهم فأبلسوا واضطربوا فى أمرهم، وعميت عليهم السبل، وحشدوا جموعهم وتواصوا بالشر وتنادوا فيما بينهم بمقالة المغلوب على أمره فقالوا «إن هذا إلا سحر يؤثر»، «إفك افتراه» «أساطير الاولين» «وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب» «لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»

أى وربى لقد رأوه فوق متناول ألسنتهم ودونه ماعرفوا من سبل البيان التي خبروا وعرها وسهلها، وضربوا فى مسالكها، وتغلغلوا فى فجاجها ومضايقها فاما عميت عليهم الانباء جحدوا (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى

فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » فياسبحان الله رسول من أنفسهم يدعوهم الى اجابة داعى الحق ليخرجهم من الظلمات الى النور فيتعللون بالأمانى ويتعلقون بالمستحيل ؟ ! !

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) .

أجل هذا هو القرآن الذى يتحداهم بسورة من مثله فاذاهم يبهتون! مع أنهم (قد خصوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم وأتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب مايقيد الألباب . . . منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ؛ ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والالفاظ الناصعة والكلمات الجامعة . . . فقالوا فى الخطير والمهين وتفننوا فى الغث والسمين وتقاولوا فى القل والكثر وتساجلوا فى النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١)

أما وجـــــه إعجازه فى مكنة البشر منا أن يقولوا . . معجز بنسق تأليفه ، وانسجام كلمه ؛ وصور نظمه وعجيب تعبيره وبديع تركيبه وغريب قصصه . . معجز بأسلوبه الذى هو لا بالمجمل كله ، ولا بالمفصل كله ؛ ولا بالمرسل كله ، ولا بالسجوع كله ، وهو مع ذلك محيط بشرف اللفظ وسمو المعنى فى سهولة ممتنعة الى تصرف فى كل مذاهب

(١) الشفاء للقاضى عياض

القول وأفانين البيان؛ يتحدث الى الخليقة فى كل غرض؛ ويعرض عليهم أمور الغيب والشهادة،مامن أديب يتدبره، أو أريب يتعقله حتى تبهره بلاغته فتمتلىء نفسه بمافيه من حلاوة وماعليه من طلاوة.

قصص بارع، ومثل رائع، وزجر رادع؛ وحكم ملتصقة بالقلوب الى وعد يملؤك إيمانا ووعيد يكاد يطبق الخافقين فتخور له القوى. ومن بشارة تمتد النفوس الى اقتطاف أزاهيرها الى نذارة ترمى بالقلوب فاذاهي هاعى فى الصدور رهبة واشفاقا. فلا بدع أن يجد القارىء أو المستمع موضعا للسجود واى موضع؟!

فهـذا أعرابى يصدع قلبه قول الله: (فاصدع بما تؤمر) فيخر ساجدا ويقول (سجدت لفصاحته) وذاك آخر يخلص سمعه الى قول الله: (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا) فاذا به يقول. (أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام)!!

هـذا هو القرآن الذى نزل منجما فى بضع وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث المستجدة تراه حينا شديدا قاسيا فى الحق على قوم كانوا أشد قساوة ومرودا على الباطل، إذا حاجهم حجهم،وإذا خاصمهم خصمهم، وإذا عاندوه بطش بهم بطش الجبار فى اشفاق المقتدر. (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هـذا نزلهم يوم الدين نحن خلقناكم فلولا تصدقون. افرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) (افرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون

لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء لجعلناه أجاجا فلولا تشكرون)

(فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا إنا خلقناهم مما يعلمون . فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) هذا على أنك تراه حينا آخر هادئا وادعا ،سهلا لينا ، تتفجر ينابيع الرحمة من جوانبه ويشع من بين آياته نور الايمان مشفوعا بما أعده الله لعباده المتقين من نعيم مقيم (ولمن خاف مقام ربه جنتان .فبأى آلاء ربكما تكذبان ذواتا أفنان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان هل جزاء الاحسان الا الاحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان)

تلك آى من القرآن الكريم الذى يبصر الخليقة بأمور أنفسهم ويدعوهم إلى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فيه بيان لما للناس على الناس ولما للخالق على الخلق ، إلى ما هنالك من صلة بين الحاكم والمحكوم بل بين العبد ونفسه وبين النفس وبارئها . فرض الصوم

والصلاة والزكاة والحج وأحل البيع وحرم الربا وشرع الحدود والقصاص. رغب المؤمنين فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين وجعل مفاتيح أبوابها العمل الصالح ، وانذر الكفار عذاب النار ما كابروا وعندوا وأصروا واستكبروا جزاء وفاقا

ولم يخف حال المنافقين الذين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا أنفسهم وما يشعرون. من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد

ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم (نبىء عبادى أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم) .

أجل هذا دستور رب العالمين ومعجزة سيد المرسلين لا تبلى جدته ، ولا تخلق ديباجته ، لا يزال ولن يزال باقيا حتى يرث الله الارض ومن عليها وحتى يكون الدين كله لله (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

(ب) أثر القرآن الكريم فى اللغة

غرضا ومعنى وعبارة

كم لهذا الكتاب الكريم فى اللغة وآدابها من آثار يلمسها من تغلغل فى تفهم أساليبه، وأحكم النظر فى معناه ومبناه بعد أن يلم بمأثور الجاهلية ويسبر دخائل نفوسهم وأغوار تفكيرهم المحدود فى ظواهر الوجود مما لا يكاد ينفذ الى ماوراء الطبيعة ؟

هنالك يرى كيف أن القرآن حول مجرى هذه اللغة تحويلا : فبسط أغراضها الى مالم تكن تقوى على احتماله من قبل ، وفجر معينها ، ورفه عبارتها ، وصقل الفاظها ، بل أحدث فيها من الأساليب السامية والعلوم المتزاحمة مالم يكن له أثر لولاه .

وأول مايعول عليه الباحث هو تلك الحركة الفكرية والثورة النفسية التى هاجها القرآن فى بطن الجزيرة العربية والتى انتهت بإيمان قوم إيمانا صادقا خالصا الى النفوس ، فقد أصغوا الى صوت الحق فأجابوا داعية العقل ، ولبوا نداء الضمير ، هؤلاء الذين استسلموا للحق وأسلموا وجوههم للذى فطر السموات والارض قد نحبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدتهم وعن دينهم الممثل فى كتاب الله . فذادوا عن حياضه مستميتين (ولست أبالى حين أقتل مسلما .·. على أى جنب كان فى الله مصرعى) واستلوا ألسنتهم بما يملكون من بيان وهم فى كل حال يستمدون أساليبهم من أساليب هذا القرآن وحججهم من حجج هذا القرآن وقد زفها إليهم فى آيات بينات .

وهناك قوم آخرون شقوا فنقموا على هذا القرآن وعلى الايمان بآيات الله وراحوا يحاولون قرع الحجة بمايشبه الحجة ، وينالون من الدليل بمايشبه الدليل ، بل ربما انكبوا على هذا القرآن تفهما وتحصيلا . (ومن الملحدين من يحصله لينظر فى عجيب شأنه) (١) وكذلك يسلكه الله فى قلوب المجرمين

---

(١) الباقلانى

وهنا قامت بين الفريقين حرب عوان ، قوامها : ذلاقة اللسان وفصاحة البيان حتى إذا ظاهرهما السيف حينا دفاعا عن النفس أو قطعا للعناد فقد كان الفصل للخطاب فى كل حين وقديما قيل (رب قول أنفذ من صول)

(جراحات السنان لها التئام .·. ولا يلتام ماجرح اللسان)

وما فيهم إلا خطيب مفوه أو شاعر مفلق : فهذ حسان بن ثابت يمسك بطرف لسانه ويقول : (والله مايسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء) وبجانبه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة شعراء الاسلام. وذا كم عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحرث وعمرو بن العاص فى قريش يوم ذاك. ناهيك بمصاقع الخطباء من القبيلين. فلم يكن بد من أن يتمخض هذا الانقلاب عن لغة ذات صبغة (دينية ، وسياسية ، واجتماعية) فى (ألفاظها ، ومعانيها وأغراضها ، وأساليبها) مما اذا طلبت إجماله قلنا لك هو ذا :

(١) نشر العقائد الدينية وتبيين مايتبعها للناس مما مرده الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبهذا أميتت أغراض جاهلية كثيرة مما لا تتفق وهذا الدين كتقديس الاصنام وتمجيد الأوثان الخ (١)

---

(١) كما جاء فى خطاب أبى بكر رضى الله عنه (ان الله بعث محمدا رسولا الى خلقه ، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة وأنما هى حجر منحوت وخشب منجور - ثم قرأ - ويعبدون من دون الله مالا يضرهم الآية

(٢) النزوع الى المثل العليا فى أغراضهم مع سمو معانيهم نحو الشرف وتأييد السلطان ومحاولة جمع الناس تحت راية واحدة هى راية الامام العام[٢]

(٣) مراعاة التعانق بين الجملة والجملة أو الفقرة وأختها مع تجويد رصف الكلمات نسجا على منوال القرآن حتى صح أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام[٣]

(٤) إيثار اللمحة الدالة على القول المسهب لأن لكل مقام مقالا[٤]

(٥) الاقتباس من القرآن الكريم أو التلميح إلى آية أو بعض آية منه[٥].

(٦) استعمال تراكيب جديدة وعبارات مبتكرة نبههم اليها القرآن لانهم

---

(٢) راجع خطبة السقيفة لأبى بكر والبتراء لزياد

(٣) من خطبة للأمام على : (أيها الناس : اتقوا الله الذى ان قلتم سمع ، وأن أضمرتم علم ، وبادروا الموت الذى أن هربتم منه ادركم ، وأن أقمتم أخذكم) .

(٤) خطب عمر رضى الله عنه فقال : (أيها الناس : أنه والله مافيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ؛ ولا أضعف عندى من القوى حتى أخذ الحق منه) ثم نزل ناهيك بما لغيره من طوال الخطب وسنشير الى ذلك عند الخطابة .

(٥) كما وقع لشداد بن أوس فى ختام خطبته بقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وترى من ذلك كثيرا فى خطب الخلفاء والولاة والعمال

لم يفطنوا لها من قبل (١)

(٧) مجانبة التباصر بالغريب من الالفاظ أو الحوشى المستكره والتحرر من قيود سجع الكهانة فى الجاهلية لا نسيابهم وراء القرآن (٢)

(٨) احداث هدنة عامة فى الشعر بادىء ذى بدء خلا ما كان شريف المعنى نبيل الغرض كالذى له مساس بالدعوة الى الله وستعرف شيئا من ذلك عند حديثنا عن الشعر ان شاء الله

(٩) التوسع فى الدلالات الوضعية للالفاظ العربية مما صار حقيقة عرفية بعد عقد صلة بين المعنى الاول والمعنى الثانى المراد كالحج والعمرة وما اليهما. (٣)

---

(١) فى مثل قوله تعالى (ولما سقط فى أيديهم . الحاقة ما الحاقة . القارعة ما القارعة .)

(٢) قال أعرابى لابن عم أساء اليه « سأتخطى ذنبك الى عذرك . وإن كنت من إحدهما على شك ومن الآخر على يقين ليتم المعروف منى إليك ، وتقوم الحجة منى عليك »

(٣) قال ابن فارس فى فقه اللغة . (فكان مما جاء فى الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق . وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمى المؤمن بالاطلاق مؤمنا وكذلك الاسلام والمسلم الى أن قال : فأما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الأصل من نافقاء اليربوع ولم يعرفوا فى الفسق إلا قولهم (فسقت الرطبة) إذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بأن الفسق الأفحاش فى الخروج عن طاعة الله) الخ

(١٠) إحداث علوم شتى – تعاقبت على مر الزمن – مصدرها انكباب العرب على تفهم معنى القرآن ومبناه ومحاولة درك سر إعجازه ، والبحث والاستنباط من محكمه وتبيين متشابهه فكان «النحو . والصرف واللغة . وعلوم البلاغة – المعانى والبيان والبديع – ومتن اللغة وفن الادب والفقه والتفسير . والقراءات والأصول وعلم التوحيد والتاريخ والاعجام والشكل والنقط

(١١) أما أثر الآثار للقرآن فى اللغة بعد ما القينا اليك فبحسبك أنه جعلها تتسع لآداب خالدة تتجدد صورها على مر الازمان ، كما جعلها تتسع إلى علوم لاتزال تتوالد وتتزايد على كر الأيام ، بل حسبه أن جعلها تتسع ألى كل تشريع يعرض للأمة حسبما يعرض لها من شئون . .

وفوق ذلك كله قد ضمن لها عمرا طويلا وحياة سعيدة خالدة فهى المجلية فى ميدان السباق من بين اللغات

الحديث النبوى وأثره فى اللغة

غرضا ، ومعنى ، وعبارة ....

من أمجد أرومة ، واشرف قبيلة ، وخير بيت ، واكرم والد ، اختار الله تعالى خاتم رسله ، وفى حى من أفصح أحياء العرب ، وأعدلهم لسانا ، وأوضحهم لهجة ، استرضع رسول الله صلي الله عليه وسلم – جريا على عادة العرب من تنشئة أبنائهم اول عهدهم بالحياة – فى معاهد البادية لتكتمل لهم الروح القوية بالشجاعة والكرم والمروءة ، وما

اليها من الصفات المحمودة فى اخلاق عرب البادية ، فأرومة النبى صلوات الله عليه مضر ، وقبيلته قريش ، وبيته هاشمى ، ووالده عبدالله ابن عبدالمطلب ، وظئره حليمة السعدية من سعدبن بكر فى علياهوازن الذين يقول فيهم ابو عمرو بن العلاء : افصح العرب علياهوزان ، وسفلى تميم ، وروى اصحاب الغريب والسيوطى فى المزهر قول النبى صلى الله عليه وسلم : أنا افصح العرب بيد أنى من قريش ، وانى نشأت فى بني سعد

عناية من الله عز وجل لحظ بها نبيه الأمين ، ورسوله الكريم منبتا ، ووليدا ، وشابا ، ورسولا الى الناس كافة يبلغهم رسالة ربه ، ويقيم عليهم الحجة وينير لهم المحجة ، فلا عجب ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم افصح الناس وابلغهم ، وابينهم وابرعهم ، واصفاهم لغة ، واحسنهم لفظا ، واحكمهم أسلوبا ، وانصعهم كلاما ، وأقومهم برهانا ، وأجزلهم حديثا ، وأشدهم تأثيرا فى النفوس ، فى مقام لا يسامى ومنزلة لا تبارى « التى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام ، وقلة عدد الكلام ، لم يسمع بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أحمد مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم »[1] كيف لا وقد « أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب

«١» الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين

يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغاتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها » (٢)

واذا كان القرآن الكريم آية الوحى المنزل من السماء فان الحديث النبوى آية البلاغة النبوية التى وان لم يكن اعجازها للمقاول اللسن تحديا فانه جاءها من القرآن تأسيا ، فهو منه واليه ، بين مجمله وأوضح مشكله ، وفسر ما انبهم على الناس منه . (والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى)

أغراض هي اغراض القرآن ، ومعان تستقى من معين القرآن والفاظ تستمد من حلاوة الفاظ القرآن وعبارات كأنما هى الجمان فى نحور الغيد الحسان ، وأسلوب هو أجمل وأرصن ما تحدث به البشر فى الحكمة والادب ، والتشريع ،والسياسات ،والاخلاق، وشتى مايسمو بالانسانية من أغراض وأفكار ، فهو عضد القرآن ، سار بجانبه يفتح للغة والأدب أبواب الحياة ، ويذهب بهما مذهب الجدة والنهوض ، وينشرهما على الملأ فى كل ناد ؛ ويرفع من مكانتهما التى كانت لهما فى صحراء الجزيرة العربية بما وسع لهما مع القرآن الكريم فى اغراضهما التى لا تقف عند نهاية ؛ وقد أجملنا لك ما رأيناه أمس بالقرآن وهاك الآن ماهو الصق بالحديث الشريف :

«١» بسط ما أجمله القرآن من اغراضه المختلفة ، وتبيين مافيه من أحكام شرعية ، ولا سيما فيما يختص بالعبادات والمعاملات

«٢» إحداث الفاظ لم تكن معروفة للجاهلية على النحو الذى

«٢» القاضى عياض فى شفائه .

جاءت به فى الحديث ، وأظهر ماترى ذلك فى تحية الاسلام (السلام عليكم) فقد كانت تحياتهم فى جاهليتهم : عم صباحا. عم مساء

«٣» إماتة الفاظ جاهلية لاتتفق وتعاليم الاسلام نحو مايقول شاعرهم

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول(١)

(٤) الاقتباس من عباراته ، وتحلية البلغاء كلامهم بآياته، لانسلاكها فى القلوب ، وجريانها على عذبات الالسنة

(٥) إحداث أساليب تسمو الى ذروة البلاغة فى إيجاز يطبعها على صفحات الافكار كما ترى فى قوله صلوات الله عليه (الآن حمى الوطيس(٢). كل ميسر لما خلق له الناس سواسية كاسنان المشط . إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض الى نفسك عبادة ربك فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . إن من البيان لسحرا . إياكم وخضراء الدمن . جدع الحلال أنف الغيرة . اليد العليا خير من اليد السفلى . اتقوا دعوة المظلوم فانها لينة الحجاب .

(٦) احداث فن مصطلح الحديث وتراجم الرواة ، فأن العناية بنقل الحديث جعلت علماء الامة يتشددون فى البحث عن حال الرواة ، ويتتبعون

---

(١) المرباع : ربع الغنيمة يختص به فارس الغارة وقائدها. والصفايا: مايختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة : ماغنموه عفوا فى طريقهم الى غارة مقصودة والفضول : مالايقبل القسمة على الغزاة فيعطى لفارس الغارة

(٢) الوطيس: التنور والمعنى أشتدت الحرب

تراجمهم ليكشفوا عن حقيقتهم.

(٧) توجيه الامة الى التوسع فى الكتابة والتعليم مما نشأ عنه العناية بالخط العربى وتحسينه، وإعجام الحروف وضبطها بالشكل.

الخطابة

دواعيها — أسلوبها — أشهر مميزاتها

عرف الذى عاصروا النهضة المصرية فى ثورتها الاستقلالية الأثر الفعال للخطابة فى أنفس الجماهير، وتحريك عواطفهم، وإيقاظ شعورهم وبعث الحمية فى أحاسيسهم، وعرف الذين شهدوا الأزهر العامر ميدانا يجول فيه فرسان الفصاحة من زعماء النهضة وقادتها سحر البلاغة الخطابية تهتز بها أعواد المنابر، وعرف الذين رأوا مصر كلها بركانا يقذف بحمم الحماسة الوطنية فى تلك الأيام الخوالد تأثير الخطابة فى الشعب المصرى الوديع، وعرف الذين ولجوا المحافل والمنتديات، واستمعوا إلى مصاقع الخطباء كيف تفعل الخطابة بالقلوب فعل الغيث بالوادى الخصيب، فالخطابة فى حقيقتها وحى العاطفة المتوثبة، ورسول الزعامة الفتية إلى قلوب الجماهير، وسلاح القيادة القوية لتوجيه جندها من طريق البلاغة الى حومات الوغى، واحتضان المنايا، وآية نشر الحق فى أرجاء الارض ووسيلة إصلاح وتهذيب إذا استشرى الفساد وتفاقم الشر فى طوائف الامة، فهى وليدة الثورة وربيبة الانقلابات العالمية الخطيرة، فى ظلها تنشأ، وفى ساحتها تترعرع، وبأحداثها تتغذى، والتاريخ سجل للأمة العربية

فى جاهليتها صفحة ناصعة فى سفر الخطابة والخطباء ، لان حوافز الخطابة كانت لديهم متوافرة ، فاذا تطلبت حرية فى الرأى وجدت من ذلك عندهم مالم تكن تحلم به أمة من الأمم ، وإذا اقتضت قوة فى البيان ، واقتداراً على الارتجال ألفت العرب فى ذلك المجلين ، فلما جاء الاسلام — وهو أعظم حادث عرفه التاريخ — كانت الخطابة أعظم وسيلة فى نشر تعاليمه وبث آدابه ، ودحض ماسواها من أضاليل ذائعة فى الامة العربية وقد قابل العرب ذلك بما عرفت من نضال وخصومة استتبعهما جدال واحتجاج وأخذ ورد فى المحافل والمجتمعات ، حتى أذعن العرب ودخلوا تحت راية الاسلام أفواجا ، وأقبلت وفودهم لمبايعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان رؤساؤهم يخطبون ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم وفصحاء أصحابه يردون عليهم ، وكانت الجيوش تسير للفتح والجهاد فى سبيل الله فيخطبها قائدها كما شاءت له بلاغته ، وكانت البشائر بالظفر ترد على المؤمنين فيقوم بها البشير خطيبا ، وكانت مجامع الحج مجالا للخطابة من أوسع المجالات وفيها خطب النبى صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة فى حجة الوداع .

مضى عهد النبوة والمؤمنون على قلب رجل واحد ، حتى أطلت عليهم الفتنة برأسها فاختلفوا أول أمرهم على الخلافة ، فى أى قبيل ؟ وفى أى بيت ؟ ولمن هى ؟ فاجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، فتقاولوا ، وتشاوروا فبلغ أمرهم أبا بكر وعمر فذهبا إليهم ، واشتد النزاع حتى قال قائل الانصار : «أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب» فقام أبو بكر رضى الله عنه وخطبهم خطبته المشهورة ، التى أستل بها السخائم

وجمع الكلمة وتمت له البيعة ،ثم خطب الناس خطبة أبان فيها سياسته ، ورسم لهم خطته فقال (أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتموني على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فأذا عصيته فلا طاعة لى عليكم) وجرى على سنته عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فلما كانت الفتنة العظمى فى أخريات خلافة عثمان افترقت الأمة شيعا وأحزابا ، واتسع ذلك فى خلافة على ابن أبى طالب ، ونشأت الفرق الاسلامية من (شيعة، وخوارج،وجماعية) وانتحلت كل شيعة مذهبا فى السياسة والتشريع وتقدير الامور ، فكان تدافع وتصاول ، وكان حجاج ، وكان بسط للآراء والمذاهب ، وليس لكل ذلك وسيلة الا الخطابة والخطباء ، إذ لم تكن الكتابة قد اتسع نطاقها بعد ، فعظم شأن الخطابة ، وارتفع ذكر الخطباء ، وتفننوا فيها بين الايجاز والاطناب على حسب مقتضيات الاحوال.

(يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء)

ولقد عنى الاسلام بالخطابة فطلبها فى بعض المواقف الدينية كالجمعة والعيدين والحج فكان ذلك ايذانا من الشارع بمقامها، وتنويها بقدرها فتسابق فى ميدانها الالسن المقاول ، وتبارى للتبريز فيها البلغاء والمصاقع ، فكان فى كل طائفة كثرة من الخطباء ،فمن الخلفاء أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلى ، ومن علماء الصحابة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومن الولاة زياد ، والحجاج، ومن الخوارج عمران بن حطان وقطرى بن الفجاءة وابو حمزة يحيى بن المختار الاباضى ، وغير هؤلاء ممن لايتسع المقام لذكرهم

وكلهم خطيب لايشق له غبار . ناهيك بفضليات النساء وخاصة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

هذا ويمكن تلخيص تلك الدواعى للخطابة فى هذا العصر كما يأتى :

«١» وهو أهمها ما أحدثه الانقلاب الاسلامى من تغيير فى العقائد والأفكار والأخلاق والعادات مما دفع بأسلات اللسان الى خوض معمعة البيان وحرك دوافع البلاغة الى تبيين العقائد أو دحض الشبه أو أحياء الآداب الخلقية النفسية فقضى على عادات مرذولة وحث على نشر كل فضيلة وهلم جرا ويتجلي ذلك كله فى مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ورسله وصحابته وخلفائه من بعده وعمالهم وولاتهم

(٢) دأب الخطابة والشعر أن يكونا فى كفتى ميزان فاذا هوت احداهما ارتفعت الاخرى، وقد كان الشعر فى الجاهلية ديوان العرب فلما جاء الاسلام عكس عليهم الآية فما كان القرآن بشىء من الشعر، وما الرسول صلى الله عليه وسلم شاعرا فكمنت الشاعرية نوعا ما فى النفوس صدر الاسلام وانصرف القوم عن لهوه وعبثه وفجوره ومجونه وهجائه المقذع خلا ما كان فيه دفاع عن النفس أو ارشاد الى خير فكان لزاما أن تملأ الخطابة هذا الفراغ وأن تسد هذا النقص ولاسيما أنها أمكن فى الادلاء بالحجة والزم فى إقناع النفوس عن طريق الحقيقة دون الخيال

(٣) نشأة الاحزاب والفرق السياسية والمذهبية وذلك بالضرورة يتطلب إذاعة للمبادىء، ودفاعا عنها وكان لكل حزب قادة، ولكل فريق سادة وذادة ينافحون عنها، ويؤيدون مذهبها ولا يقوم بذلك الا

مداره الخطباء. وحسبك اسوس العرب معاوية واخل الخطباء على ومن لكل من أنصار وأشياع

(٤) المجامع العامة دينية واجتماعية مما تامسه فى المواطن الجامعة ، كالجمعة والعيدين ويوم الحج الاكبر

(٥) تزويد الامام للقواد والقواد لجيوشهم فى سبيل الجهاد والغزو بما يشعل نار الحماسة فيهم وربما اقتضى الامر رسلا وسفراء بين الامام وجيوشه تؤدى رسالة الظفر أو تطلب الغوث والنجدة أو تنفخ فى الدهماء روح البسالة والاقدام

«٦» تهاطل الوفود بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وعلى خلفائه وولاتهم من بعده وبعث هؤلاء وفودا من قبلهم فى بث دعوة أو نشر علم أو بسط سياسة.

هذا أهم ما دعا إلى الخطابة فى هذا العصر مما سما بأعواد المنابر ، ولك أن تضيف اليه ما كان للعرب عامة من حرية بالغة هى وحدها سبيل الى انطلاق ألسنة البيان اضف اليها الاستعداد الفطرى بين الخطيب والمخطوب فيهم من عرفان لأسرار لغتهم ، وجهارة صوت ، وتخير عبارة فى حسن أداء هذا ألى قلة وسائل التفاهم العام بين أطراف الدولة مما شأنه أن يحد من أمر الخطابة كالصحافة ونظم البريد مما ألفناه اليوم

ومهما يكن فقد سعدت الخطابة فى هذا العصر بما لم تسعد به قط فى أى عصر من عصورها :

ثراء فى اللفظ ، ونبالة فى الغرض ، ووفرة فى الخطب ، وكثرة من الخطباء مما لم يمكن ضبطه فى عجالة كهذه وانما يجدر بنا أن ننتقل بك

الى أمر آخر هو : —

أسلوبها وأشهر ميزاتها :

«١» يمتاز اسلوبها بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، بل ربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم ، وحسبك أن تعرف ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم الجمعة بسورة «ق» ولامر ما شرط بعض الأئمة اشتمال خطبة الجمعة على شيء من القرآن

«٢» يمتاز اسلوبها بالتزام البداءة بحمد الله ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقبوا الخطبة التي تخلو من حمد الله «بالبتراء» ومن الثناء على رسول الله «بالشوهاء»

«٣» بالاقتباس أو الاستشهاد بشعر من سبقهم كما وقع في بعض خطب أبي بكر وعبد الملك بن مروان والحجاج

«٤» بالتجافي عن تناقص سجع الكهان وما فيه من رمز أو اشارة أو قضاء بغيب .

«٥» بالنسج على منوال أسلوب القرآن من جزالة العبارة ، وأحكام المعنى ، وسداد الغرض ، وقوة الاقناع الى سهولة ويسر حتى ربما وصلت الى القلب قبل أن تستأذن الاذن

«٦» بالاطناب حينا مما استغرق من صلاة الظهر حتى صلاة العصر «١» وبالايجاز أحيانا مما لم يتجاوز فقرات معدودات (٢)

---

(١) كما صنع سحبان وائل بحضرة معاوية يوم ان حضر فد خراسان (٢) كما فعل خطيب الازد حينما بعث الحجاج خطباء من الاخماس الى عبد الملك .